يوسف عيد – الجامعة اللبنانية

بمناسبة "يوم سعيد عقل" — ١٩ تشرين الثاني ٢٠١٤

سعيد عقل – الفرادة

فرادته الإيجابيَّة في ثلاثة : – في اللغة والحرف

– في نظرته النخبويَّة

– في الشعر

رنين حليِّه أيقظنا فالتفتنا إلى المجد

رنين حليِّه ملأ أيدينا أنجما

رنين حليِّه شذا الزهر وثملُ الشراب

رنين حليِّه لهوٌ باللغة التعوب

رنين حليِّه غزلٌ لفتاة لَعوب، شهيٌّ طيوب

رنين حليِّه صفاءُ دمعةٍ سكوب

رنين حليِّه عندلةٌ طروب

رنين حليِّه سكرة تتوب وجمالٌ يذوب

رنين حليِّه البضْ مترعٌ بالأريج، معجونٌ بالزوفى

وبزينة الدماليج

رنين حليِّه مغناجٌ صريع وبعد،

لماذا لم يبلغ "سعيد" التجريد الصافي، ليسعى ما وراءه بعدئذٍ؟

١- من حليّه فرادته في اللغة والحرف:

إنَّ اختياره للحرف اللاتينيِّ، كان ثورة بكلِّ ما للكلمة من معنًى. فقد اشتعل الشرق به واشتغل بفرادته.

الأبجديَّة الجبليَّة كانت الملهم الأوَّل لإصلاح الحرف عنده. فالفينيقيُّون، كانوا يعرفون أنَّ هناك حاجزًا بين الأذن والعين، لذلك لعبوا لعبة الأبجديَّة بإتقانٍ ودقَّة. فجعلوا الأذن تسترجع من العين الرسالة.

ألفباء جبيل أدَّت في اثنين وعشرين حرفًا آلاف الكلمات لاثنين وعشرين فونيمًا.

حاول "عقل" استجلاء المنطق لعلَّه يقنع، فلم يتمكَّن من القبض إلَّا على الشكل، إذ كانت دونه عقبات كأداء (تتألَّف الأبجديَّة اللبنانيَّة من ثمانية وعشرين حرفًا ساكنًا (consonnes) وثمانية أحرف حركة ....) والحروف الشاغرة هي: (ح – x) . (خ - k) (ش – c) ، (غ – G).

وهو يقول بأنَّه تناول الألفباء اللاتينيَّة وأصلها على ثلاثة أضواء منطقيَّة: - أمِّها وأناقتها، وعدم التخلِّي عن مكتسبات الأربعة آلاف سنة. والحدث الأبرز بشأن انتشار الحرف اللبنانيِّ ما شهده المؤتمر اللغويُّ المنعقد في باريس عام ١٩٧٣، حين دعا مندوب ألمانيا الدكتور "هاينز غروزفلت"، إلى اعتماد حرف جديد ظهر في لبنان، مبيِّنًا أنَّ دعوته هذه تعتمد منطقيَّة هذا الحرف وأناقته، قائلًا: ليس غريبًا على العالم أن يطلَّ لبنان بحرفٍ منطقيٍّ أنيق. فاللبنانيُّون كانوا من أوائل التاريخ أصحاب هذا الاختراع.

أليست هذه فرادة لم يأتها رجلٌ في الشرق؟ ثورة الحرف عند "سعيد عقل"؟

فرادة لأنَّها تمسُّ إناءَ عقلنا، وما لم نصلحْ الإناء، لا يمكننا أن نملك المحتوى الصالح. كما ذهب إلى التفريق بين اللغة والتدوين. فاللغة برأيه مؤسَّسة يبلغ عمرها مئات الألوف من السنين. أمَّا التدوين فلم يبدأ إلَّا منذ أربعة آلاف سنة ونيِّف. إنَّ دول أوروبَّا قد حلَّت هذه المعضلة بترك ما في الكتاب، واعتماد ما في الفم. أمَّا نحن، برأيه، فعلينا أن نترك لغة الكتب لنأخذ لغة الحياة. فإن بقينا على لغة الكتب نكون قد استنكفنا عن مجاراة الناموس العامِّ. يجب الأخذ بما هو شابٌّ، وترك ما قد شاخ.

واللغة جسمٌ حيٌّ، يمرُّ قضاءً وقدرًا بالطفولة فالشباب فالهرم فالعودة إلى الطفولة. وويلٌ لشعبٍ يناقض السنن. هذه الدعوة الَّتي شكَّلت فرادته اللغويَّة، جعلته يثبت نظريَّته بأنَّ اللغة البنت تكون دائمًا الأرقى، والنزاع الَّذي ينشب بين لغة كتاب ولغةِ فمٍ، تكون فيه الغلبة دائمًا للغة الفمْ!

لذلك أطلق ثورته اللغويَّة ليكون فريدًا في تجدُّده.

٢- **حليَّة النخبويَّة :**

"سعيد عقل" الفرادة بين أيديكم الليلة. ولست الَّذي أقول إنَّما الفكرة الفراشةُ الطفلةُ تقولُ وتسألُ العمرَ: لِمَ يشيخُ الجبلُ؟ وهلْ يشيخُ عمودُ بعلبكَّ؟ أو تشيخُ الدمعةُ في عُتبَةِ الزَحلِ؟ في حديثه عن النخبة (١٣ كانون الثاني ١٩٥٤) في الجامعة الأميركيَّة، كتبَ عبقريُّ لبنان بمثلِ ماء الشمس. غمسَ ريشتهُ في مُذابٍ، في قوميَّةٍ لبنانيَّةٍ صافيةٍ، في سبعة آلافِ سنةٍ من عمرِ الذاتِ، في الأعمدةِ، في القوَّةِ والمحبَّةِ، في الجمالِ والقدرةِ، في عماراتِ أبنائنا، في الماهيَّةِ والوجدانيَّةِ.

وكأنَّ النخبةَ هذه لبنان، لكثرةِ ما عَمَلَ في كلمته رفعها إلى أقدس موضعٍ في الجمال. صارت معبودةً أو إلهةً من آلهة الأساطير، ترصفُ النشوةُ الذاتيَّةُ أحرُفَها وتقبضُ على الحسِّ.

لبنانُ هو النخبةُ هو كلُّ شيءٍ بعدَ الله.

كم من عظماء ماتوا وهم يحلمون بالعودة إلى وطن الأرز، ولِمَ الفرادةُ في ذلك؟ لأنَّه يدعو إلى النخبويَّة وليس إلى العدديَّة. وحين نفقد النخبويَّة نفقد وجودنا (وهو على حقٍّ في ما يدعو)، وجودنا يتحصَّن بنخبنا، والنخبة ثقافة من ماضٍ وحاضرٍ وغدٍ .

نخبويَّته كانت أوَّل كلمة في الحضارة وآخر كلمة، ويوم لا يكون لبنان يقلُّ النورُ في الأرض.

من حبِّه الجارف أطلق أبجديَّته، فكان متفرِّدًا جريئًا. لكنَّ الَّذين يعرفونه لا يستغربون حماسته وفرادته! إذ هو مقتنع بأنَّ على العالم أن يتلبنن.

ولطالما كرَّر في قوله أنَّه أبٌ بالتبنِّي لثلاثة: لبنان والعقل والله.

هذه النخبويَّة لم يحدِّدها أبدًا سابقٌ لهُ ولم يتجرَّأ عليها لاحقٌ.

كوكبٌ تحوَّلَ إلى مجرَّةٍ شدّت إليها كواكبُ ونجومٌ .

٣- **حليَّة الشعر وهي الحليَّة العظمى والأبهى:**

"بحبَّك ما بعرف هنّْ قالولي

من يومها صار القمر أكبر

وعَتلالنا صارت الزغلولة

تاكل عإيدي اللوز والسكَّر

بحبَّك ما بعرف حبّْ

لا تشدّني بإيدي

عا نهر ب دنية هنا جديده

ونغبّْ...

لأ دخلك هيئتي رح طير

مرجحتني بقلبك بقلبك بعد بكّير بكّير

تركني بحبّك يا حلو بحبّك"

هل الشعر، عنده، منطلق من نقطة انتهاء العقل والعاطفة والخيال والحسِّ جميعًا، ليتمادى، ويتجاوب خلفها كلَّها من دون أن ينطبع بها، ويقتصر عليها، ليصبح الشعرُ شعرًا، وحسبُ، لا يحملُ شيئًا من انطباعات المحسوس والمألوف؟ مهما يكن من عدمِ تكامُلِ الشعرِ وصفائه، فهو، من خلال الفرادة الَّتي استطاعها، يتشوَّف بمُناخِهِ الشعريِّ إلى الأعالي الَّتي خلقها من قبله "بودلير و فاليري ومالّارميه" وغيرهم...

تفَّاحةُ الفتاة لم تفقدْ غبارَ بكارتها. "إذ من يومها يا أمّي مدري شو بني؟"

هل الفرادة الطبيعيَّة الَّتي لوَّنت هذه اللوحة اللبنانيَّة غيرُ تطويع العقل في صفِّ الانفعال؟ لعلَّه أجمل الفنِّ لأنَّه يحملنا إلى جوِّ الانسجام والعذوبة، إلى النشوة والصمتِ؟ فالجمال ليس في الأشياء بذاتها وإنَّما في الحرمان منها.

في العلائق بيننا: فقد تزيَّنت تلال القمر بزغاليل العمر. هكذا يردُّ "عقل" الهيكيّة إلى الضرورة الَّتي تغذِّي العمر بالحلمِ، بالحبِّ، باللوزِ، بالسكَّرِ ليكتملَ الرمزُ، ويجلو في انضباطٍ كلُّه صفاءٌ مع المدلول.

"ومن يومها يا إمِّي مدري شو بني" خيط النغم الَّذي تتلمَّسهُ خفيًّا، يحملنا إلى نشوة يسود فيها الصمت، وترقُّ المخيَّلة، وتشفُّ العاطفةُ. فلا سؤالٌ ولا فعلٌ ولا ردُّ فعلٍ، وإنَّما عذوبةٌ وفرحٌ وجمالٌ تبري الرغبةُ بريًا. إنَّه الغزلُ الكونيُّ، تمامُ ألفةٍ أو لُحْمَةٍ أو خلاصُ توحُّدٍ بين فرديَّةِ الانفعال وامتلاء الوجود، حين يبيع العمر بقبلةٍ، بحبَّة لوزٍ بمذاقيَّة سكَّرٍ. ولحظة السعادة المحتملة موجودة في لا وجودها، وهي تجربةٌ وعيشٌ وافتراضٌ.

فالحبُّ لم يكن في بال الفتاةِ سوى حلمٍ لا صدى له في جسدها. ولكنَّها، في هذه الليلة، تستيقظ على قولهنَّ وفي جسمها عاطفةٌ جديدةٌ تستبدُّ به. عاطفةٌ كانت مبهمةً تتراوحُ بين تخيُّلاتٍ عذبة، ورغباتٍ ملتبسة اللذات. فإذا بها فجأةً، قد وعت حين "هُنَّ " قالوا لها عن الحبِّ. وكأنَّ كيمياءَ هذه الكلمة قد أحدثت انقلابًا، فطفقت تنشدُ رغبتها المكبوتة، وحلمها المبتكر برغبة الامتلاك، وشهوةٍ تُعتصَر كما ثمرةٌ فوق ثغر. هذه الفرادة في الشعر أبرزت خمود العاصفةِ ووهنَ فتاةٍ تغذِّي أنوثتها، وهي في بحران الغيبوبة، لأنَّه من يومها بدأ العصفُ والحُمى (بدِنْيةْ هَنا ...ونغبّ..) إنَّها سعادةٌ مفردة لقلمٍ يصوِّر فيغنِّي الجمال، وعمى لحسنٍ يقف في الزمن (من يومها). فيخصُبُ الزمن.

تشارك الخالِقَ في خلقِهِ، وهي ذات حساسيَّة قويَّة. إنَّه زمنُ فرادةِ الحمَلِ.

فرادة "السعقليّة" أنَّه جعلَ المتناهى ينشدُّ كما من ثُغرة في ذاته، صوبَ الخلودِ والشرُّ نفسُهُ يتوقُ إلى الخيرِ كأنَّما يستغفِرُ لنفسه.

أبدعُ ما كان ينمازُ به إيمانُه بقوَّةِ الكلمةِ الموجِبَة. فهو على غير أهله، شكولُ الصورِ البيانيَّة والبديعيَّة، عَذوبُ السياقِ، طَرِبُ الأذنِ، بَلِلُ اللسانِ على قولِ "بول فاليري" في "فوست": "لأنَّ العجبَ وحدَه يوقِظُ، بينما الأشياءُ اليوميَّةُ المألوفةُ نصف سباتٍ".

وغنّى حول قدٍ وشاحْ.

شعشعةٌ وطربٌ هذا الَّذي يرنُّ مرنًا خفيفًا حول الفكرةِ الَّتي يكسوها عودٌ إلى النعمى تشيع من الشيء الَّذي يشفُّ وراءَ الثوب.

قطفُ اسمها من ياسمين، فيا

فراشتي، مهلًا برفِّ الجناحْ.

فالقصيدةُ سُبْحَةُ إيماضاتٍ طريفة تحبلُ بها المخيِّلةُ المطلقةُ على حدِّ تعبير (Gaston Bachelard) تنحتُ فيه معادلاتٌ تصويريَّة جديدة وتتمخَّضُ عن خَلْقٍ.

مُرِّي ببستانِنا صباحًا

أو رفرفي

يا رِنْدَلى، واسْمعي الأقاحا

نادى: اقطُفي

هي أكثرُ من امرأةٍ، هي طائرٌ لطيفٌ سرِّيٌّ. هي الفراشةُ ترفُّ والأقحوانةُ أختُها تقول "اقطفي" فالفراشة أقحوانةٌ طائرةٌ، والأقحوانةُ فراشةٌ تَغِطُّ.

إنَّه كيميائيٌّ ماهرٌ يتصرَّفُ بمادَّة الذوقِ، ويلهو بلباقةِ المعادلاتِ اللفظيَّةِ، ويلزمنا لفهم ذلكَ عصورٌ من تثقيفِ الذوقِ كي نستطعِمَ بالفكرةِ، وهو يضعُ أقلَّ ما يمكنُ من ضوءٍ. كما سنرى سيكونُ ضوءًا "فتّ في الضوء"، وكما قال فيه "أنطوان قازان": ما أهنأه في اقتسامِ الندرةِ! أخو القلمِ المنهومِ في الجمال..."

يعبِّرُ عمَّا لا يجدُ له شبيهًا في علاقاتٍ خفيَّةٍ بين الألوانِ والأشياءِ. وهذا من دونِ شكٍّ فرادةٌ.

أطبَقْتُ أجفاني عليكِ

أضمُّ فيكِ العمرَ كلَّه.

هو مظهرٌ من تفجُّراتِ الفرادةِ الجماليَّة يجمعُ بين رقَّةِ العاطفةِ والغوصِ على ما يُعجِب ويجذُب. يفيض بالجدَّةِ والمفاجأة. يوسِعُ فيضانه بأن تتزاوج الصورتان: إطباقةُ الأجفانِ أوَّلًا، والضمُّ بالإطباقةِ ثانيًا، على ما يُضاف إلى لذَّةِ الإطباقةِ العاطفيَّة أن تجمعَ بينَ خفاياها كلَّ ما يمكنُ أن يكونَ هناك من لذَّاتٍ في العمر.

هذا التكرارُ اللطيفُ يشفعُ به أنَّه جاءَ تكريسًا وتشديدًا عاطفيًّا يمسَحُ البيتَ بكلّيَّته، مسحًا شهيًّا، فيتَّحدُ الحلمُ والعاطفةُ في طعمِ الحبيبة.

قلبي مليءٌ بالفراغِ الحلوِ

فاجتنبي دخولَه (سمراء)

لا أغالي إنْ قُلْتُ على ساعدَي "العقل" تتلاقى أعمدةُ بعلبكَّ وقدودُ العذارى.

المفاجأة في الملءِ الَّذي يُحدثُه الفراغُ، إذ يجعل الدخول إلى القلب سبب زوال الحلاوة المتأتِّية من امتلائه بالفراغ. أو قوله: للنسور ولنا الملعب.

ففرادته في تقتير اللفظ وبلاغة المعنى. "ولنا" وجه الانسجام والشبه "الملعب" بعد أن مهَّدت الموسيقى اللفظيَّة الفخمة للمعنى المتبخّر عن هذا التزاوج.

روعة وهدوء وجلاء يفسح في مداه أن تكون "الباء" مضمومة.

وبأيدينا يلين

مزهرًا هذا الحجر

هو السرُّ الَّذي يجعل الجمال يتحوَّل بشَبه كيمياء إلى غير الأصل. وما يضفي عليه رقَّة ولذَّة أن يتمَّ بين أيدينا. لا مندوحة عن القول بأنَّ حالتي الليونة والإزهار اللتين يكتسبهما الحجر مع جمالهما ليستا متلازمتين للأصل.

نُقَّادُ سعيد عقل وشُرَّاحه، لم يخرجوا عمَّا دُقَّ وأغلق من قصائده، وإن غمسوا أقلامهم في عطره. غير أنِّي بالضيق الَّذي أبحث فيه عن ارتياح وفرادة، أظنُّ أنَّه افتداء ومحاولة أنسنة العلائق الَّتي تشدُّ الإنسان إلى الكون. في غزله

ووطنيَّاته وأغنياته، وفكره، ولغته، وجماليَّته، كأنَّه يفعل المحبَّة للمرَّة البكر العذراء، عملاً بقول بولس الرسول: "وإنَّما المحبَّة هي العظمى".

ما أدَّعيه، ربَّما، لن يكون صحيحًا، لكنَّها نظرتي البكر إلى فرادة سعيد عقل في خلقه. إنَّها الفيض الفيزيولوجيُّ لنفس تكتب الخلود، بل القدر الَّذي ولد فيه ولن يموت بموته. وهل تموت الشمس إن غامت؟

الفرادة بالخلق الجميل المتوالد، تختارنا وتريدنا إلى مستوى عبقريَّته، أكثف وأنهض وأذوق.

وإذا هدبُكِ جاراه المدى

راح كونٌ تلو كونٍ يُتَكَر (رندلى)

ينتزع الكونَ من ذاته، يوقظه من عفويَّة غيبوبته ليُظهر فرادته في ما دونه إليه. يكفي أن تخلع عيناها نظرةً على المدى، حتَّى ينهمر النور من الهدب الَّذي يستنطق بَكورة المدى. فرادته في طابعه الكوزمي. بالخلق الفنِّيِّ يعطي معنى للوجود.

فمن يا تُرى جعل الحبَّ بين رائح وغاد على نجوم، يعطِّر العطر غير السعقلي في قوله:

ورائحٍ حبُّنا، وغادٍ

على نجومٍ، على ليال

يعطِّر العطر، فهو منَّا

من نفسه بعدُ في سؤال

تلهو ونلهو بها الثواني

ماذا؟ أكفَّت عن الزوال؟

ويجمدُ الزمن في اللحظةِ الَّتي يعلنُها، وكأنَّنا من عميقَةِ الحاضرِ نفسِه، تُطلُّ في النشوة على اللازَمَنيَّة. يحرِّرُنا ويعلينا على الديمومة نفسها.

لأنَّنا في الوجود كانت

فْتَةُ دنيا إلى الجمال.

فالوجود ليس وجودًا لولا وجودنا. ووجودنا هو الحبُّ. والحبُّ هو الوجود، هو النحن.

فإذا بلبلٌ غنَّى لعينيها يغنِّي البهاء. هذا الشعور بالتحرُّر يتراكم حتَّى التجرُّد. تحرُّرٌ منبثقٌ من مثل "عبوديَّة"، من مثل انسحاق، كالصوفيِّ الَّذي يحرِّر جسده بجسده كي يجعله متَّحدًا بغبطة المحبَّة الأسمى. بهذه الفرادة يجعل الفنَّ يميتنا كي يلدَنا في الوهم أبهى وأغنى.

فهل أجملُ وأبسطُ من قول فتاته المراهقة:

"علمَتْ أمّي بنا"

أو

"كنتُ لونًا وامّحى"

فاللغة الفصحى لشدَّة التهذيب تبلغ على يديه أرقى درجات الفرادة في البساطة.

في اللبنانيَّة نقول: عرفوا فينا، كان بوجّي لون وانمحا.

ألعينيك تأنَّ وخطر

يفرش الضوء على التلِّ القمر

لأيَّة عينين يتأنَّ القمر عندنا؟ وهو يفرش الضوءَ على تلالنا، والزهو في الأغصان. هذا لا يتحسَّسه إلَّا من رَهُفَ الوترُ في صدره.

إنَّ فرادة "سعيد عقل" لا يُستَدَلُّ عليها في الشعر أو النثر، بل في إبداعه حيث أصابعه من لجيْنٍ تُصوِّرُ نهدًا اشرأبَّ له عنقٌ من خلفِ فجوةٍ، وليس نهدًا خلعَ إزاره. فالمرأة بعد، صحوٌ في البالْ ووهمٌ في الخيالْ وفي العزف محالْ، لأجلها تخضوضرُ الرُبى. ويمرُّ السكبُ في خاطرِ الكرومْ. خُلاصةُ حسنٍ كلَّما انتهى من جمالٍ فيها، تاقَ إلى أجملْ.

يقول:

أنا فوقَ صدركِ أطيبُ روحًا

وأطربُ شعرًا، وأصفى نيَّةً

خلَعْتُ شبابي على نافرين

به، وعلى فجوة عاريه...

فرادته جلواءُ بينَ حسِّهِ وعقلِهِ، بينَ أصابعِهِ وسرِّ اللمسِ، بين شفاهِه ومعنى القبلة، بينَ ذراعيهِ وأملِ الضمَّة، بينَ اللذَّة ووَلَهِ المطْلَب، بينَ التمنُّع والعطاء بينَ الغزلِ والخلق.

لذلك، لو لم يكن "سعيد" متفرِّدًا أو الفرادة، لما أمكننا الاستعاضة عنه بوجهٍ مماثلٍ؛ فالقمَّة في أمَّةٍ لا تقحمُ السحاب إلَّا في غفلة من الدهر.

قد يكون سهلاً مع بعض الأقلام، وقد ألِفت ثورة "جبران خليل جبران"، أن تكتب كصاحبِ النبيِّ، أن تُجاريه في نسجِ الغمامِ وضبطِ الإعصار، لكن ليس قبل جبران أو بعده قلمٌ استطاع أن يألف مناخَ الفرادة في هذا الرجل، وهو في القمَّة العاصية. قد يكون هيِّنًا أن تعشى أقلام أخر إلى ضياء "سعيد عقل" الصاعق، وتحبُكُ من أسلاكِ أشعَّته أضواء عقليَّة عميقيَّة المدلول. ولكنْ ليس قلمٌ واحدٌ استطاعَ أن يغمسَ ريشةً في الخوافي ويجعلها قادمة جناح.

إنَّ "سعيد" الفرادة متعبِّدٌ آثمٌ، خاطئ يتسربل بالغفران. فالرؤى مطارح خطاياه، يترك لنا وراء الكلمة ما يترك. شاعرٌ من قولتهِ الجمالُ، فليس للأوحالِ أن تتركَ على جداره بقايا، وكأنيِّ بالجسد مهما التهب واصطخب يتبخَّرُ على نارِ شعرِهِ فلا يبقى فيه سوى بعضِ أثر.

إنَّ يومًا لا يمرُّ بـ "سعيد" الفرادة فيه من حبيبتهِ طيبٌ، ومن لبنانَ طيبٌ، لهوَ يومٌ لا مشرِقَ فيهِ ولا مغيب، يرتشِفُ الشمسَ بحلمٍ ضائعٍ في أهدابِهِ. خطيئتُهُ أنَّه يسكُبُ الخمرَ على نهدٍ ليلتهِمَهُ بعينيه.

وما ذنب من يهزُّ الريحانَ وينغِّصُ الزنبَقَ، ويقصِّف الرمَّان على قدٍ قلق. إنَّه "سعيد" الفرادة يحمِّلُ الخصرَ نغمةً ليشدَّ نجمًا بأرض، ويحبَّ من الربيعِ عطرَهُ الَّذي لا يُنظَر، ومن الوجود الخَلْقَ في المطلَق، ومن المرأة ذاتَها الَّتي لا تُحَدُّ.

ليتَ لي أن أغرقَ مرَّةً معهُ في لجَّةِ الهوى، ولا أظلَّ على صفحةِ الماءِ.

ليتَ لي أن أحطَّ معهُ الفمَ المبتكر، الأنور، الأحمر بالنار، بالوهلة، بالزنبق المقطوف من مرجة الشمس، ومن يَشُكَّ في قولي وفرادته، فليُعطني يدَه أجعلْهُ يلمَسُ الجرحَ بإصبعه في جنبِ الشاعرِ.

وبعد، يتلجلجُ كلامي تهَيُّبًا،

أ"سعيد" البلبلُ الصدَّاحُ ترقُصُ على أنغامه أشعَّةُ الشمس الطالعةِ من سماءِ لبنانَ، وقد أرخت له يدُ القدرِ حبالها، فأطالت عمرَه في ميعةِ أنشودةٍ تغنِّي مطالَعها الأجيالُ؟

أم ملهمٍ استهوت انشادَه ربَّاتُ الشعرِ فهبطت ترفرفُ أسرابًا، وتحومُ أطواقًا، حتَّى عقدَت من حولهِ هالةً من نارٍ ونور، وعلى مرتعشِ نفسِهِ حملتةُ إلى حيثُ لا تخرس أعواد، ولا تنقطع أوتار، إلى حيثُ ملحمةُ الدهرِ أغنيَّةٌ على ألحانِ موسيقى الخلود؟

كلَّما حاولت كلماتي رسمَهُ أفلَتَتْ من جوِّها، وبقيَ الرسمُ يؤكِّدُ أنَّه لم يأتِ العالمَ، كما يأتيه الناسُ، إنَّما جاءَه قصْفَة رعدٍ، ومزق شررٍ، شقع بعلبكاتٍ، خلودَ أرزاتٍ ليعيدَ إحياءَ البطولاتِ والحضاراتِ، جاءه الينبوع الرقراق والنار على أوراقٍ.

مرَّغَ أصابعهُ بالندى فعالجَ العقولَ بالدفءِ والذهول. فرادته هذه، استولت على ذاكرةِ الناس، فاستحالت أسطورةَ قوسِ قزحٍ بينَ يديه. **ولبنانُ إن حكى** قال:

علَّقني صخرة في النجمِ أسكُنُها. جعلني وكرَ العقابين. المسك، العطر، لفتة الشمسِ، جباه النسور، أوراقَ غارٍ، خمرةُ دنانٍ، مرمى زمانٍ، مائدةُ سكرٍ، ملحمةُ انتشارٍ، مجدليَّات، رندليَّات، أجراس ياسمين.

نهودٌ لعوبٌ، خصورٌ طيِّعة، ولائمُ وردٍ، مهودُ خزٍّ وعطر، جباهُ لجينٍ، أناملُ تعرى على العاج. رخامٌ فتونٍ ، أوجاعُ إزميلٍ، وقيعةُ لحظةٍ، تبرُّجُ ثوانٍ، غزلٌ باللمى، يلفُّها اللظى، مهمَّاتُ تواريخ، خواطر، دموعُ أوتارٍ.

وقولنا لم ولن ينتهي. لبوسُ معانٍ، حمَّالُ هدايا، عطَّارٌ قهَّارٌ جبَّارٌ، فلذةٌ من إله. متفرِّدٌ بمزاجٍ، بنظرةٍ، برؤيةٍ، بجفنين، بعينين شهلاوين، بشعرٍ همشريٍّ. متفرِّدٌ بألعوبةِ خصلةٍ تتدلَّى لِتَغنَجَ على جبينهِ حين تأتيه بنتُ الوحي يداعبها. متأنِّق. عنجهيٌّ. لا يعجبه عجب. غليظُ الشفتين، كبيرُ الأذنين تدلَّانِ على العمرِ الطويل، وقد صدقَ المنجِّمون.

"سعيد عقل عالأرض وألله بالسما"، "وبعدو ما حدا".

يكفينا فخرًا أنَّنا عاصرناه.